الفصل الثاني

قابيل لا يبالي بالأخلاق

عرفنا في الفصل السابق كيف يتعايش قابيل مع ذاته باللجوء إلى خداع نفسه، وتبرير دوافعه وسلوكه. بيد أنه ليس بوسع قابيل أن يخدع نفسه طوال الوقت. وذلك لأنه أحياناً يضطر لا شعورياً إلى حد ما، لمواجهة الحقائق وتبعات أفعاله، مثل الأذى الذي سببه لغيره، أو حصوله على مكافأة لم يكن يستحقها.

ما الذي يحصل في هذه الحالة؟

لا شيء غير عادي.

ذلك لأن قابيل، بخلاف هابيل، لا يشعر بالذنب تجاه ما يفعله. أما هابيل فيهتم بالآثار التي قد تخلفها أفعاله على الآخرين، وهذا الاهتمام (أو وخز الضمير إن شئت) يقيد سلوكه، بخلاف قابيل الذي يمكن أن نصف سلوكه بعبارة وردت على لسان بطل الملاكمة راي روبنسون: «إن مهنتي هي إيذاء الناس». عندما يتحدث قابيل عن «المنافسة»، فإنه يقصد بذلك إيذاء الناس.

خلاصة القول هي أن هابيل يراعي ما قد تسببه تصرفاته من متاعب للآخرين؛ في حين أن قابيل لا يكترث لذلك.

سنعرض في ما يلي لولع قابيل بالسلطة والنفوذ الذي تتلهف إليه نفسه. إن مقياس النجاح لديه يكمن في المظاهر. ولا ننكر بأن هابيل أيضاً يسعى إلى النجاح في عمله، وهذا طبيعي. ولكنّ هنالك فرقاً نوعياً بين الاثنين؛ فهابيل ينشد النجاح دون التضحية بمبادئه، في حين أن قابيل ينشد النجاح دوماً وأبداً ولا يأبه للوسائل التي يستعملها لبلوغ غايته.

إذا لم تصادف في حياتك شخصاً يتسم بسمات قابيل، فعلى الأرجح أن تجربتك العملية في مجال العمل المؤسساتي أو السياسي محدودة جداً؛ أو ربما كنت سعيد الحظ، أن إنساناً بريئاً إلى درجة جعلتك لا تدرك وجود أمثال قابيل في دائرة عملك. ولا غرو، فـ «هابيل» وأمثاله قلما يخطر ببالهم أن أحداً يمكن أن يكون ماكراً إلى هذا الحد. وفي كثير من الأحيان يرتكب هابيل خطأً عندما يتوهم بأن قابيل لن يكرر فعلته بعد افتضاح أمره. إن الذي يحصل عادة هو أن قابيل لا يرتدع بل يعتبر ذلك درساً يعلّمه أن يتخذ الاحتياطات اللازمة كي لا ينكشف أمره في المرة القادمة. فهاجس النجاح قد رسخ في ذهنه، ولا شيء يثنيه عن التشبث بهذا الهاجس.

الأنانية والمصلحة الذاتية: مقابلة

إن مفهوم قابيل لمصلحته الذاتية مفهوم ضيق.

مما لا شك فيه أننا جميعنا نتصرف تبعاً لما تمليه مصلحتنا. والواقع أنك تستطيع أن تثق بإنسان ما دامت له مصلحة في الأمر. وهذا يقودنا إلى السؤال التالي: كيف يعرف المرء مصلحته الذاتية؟

قد يبدو للبعض، ولا سيما الطلاب الجدد الذين يدرسون الفلسفة للمرة الأولى في الجامعة، قد يبدو لهم أن المسألة بسيطة، حيث هناك رجل شرير وآخر صالح يتصرفان على النحو الذي يرضيهما ويسعدهما، أو بعبارة أخرى كلاهما يتصرف انطلاقاً من دوافع «ذاتية».

بيد أن غالبية الناس يدركون أن هناك فرقاً بين الاثنين، وهذا الفرق ليس وهماً. يمكن القول إن تعريف الرجل الصالح لـ «المصلحة الذاتية» يشوبه شيء من نكران الذات، فهو يؤمن بعمل الخير أو، على الأقل، بعدم إيذاء الآخرين، مثله في ذلك مثل «هابيل». وهذا لا يتناقض كماً مع تعريف «قابيل» لمفهوم المصلحة الذاتية، حيث إن قابيل على استعداد أيضاً لمساعدة الآخرين أو تجنب إيذائهم شريطة ألاّ يؤثر ذلك في مصالحه الأنانية. وقد لا يبدو هذا الفرق هاماً من حيث المبدأ، ولكن الفجوة كبيرة بين هذا التصرف وذاك.

إن اللامبالاة المفرطة التي تتسم بها تصرفات قابيل تجعله لا يكترث لمصير الآخرين. وأول ما يتبادر إلى ذهنه إذا سمع بوفاة زميل له، هو كيف يستطيع أن يستغل هذا الحدث للحصول على المزيد من السلطة أو على ترقية أو على زيادة في الراتب.

الكذب هو القاعدة

يلجأ قابيل إلى الكذب والغش والمناورات فقط عند الضرورة. وهذه الضرورة تبدو دائماً موجودة عنده. ولحماية نفسه (أو هكذا يتصور) يتعين عليه اتباع هذه الأساليب، لأنه يفترض أن كل من حوله يلجأ إلى الغش والخداع والنميمة. ومن الواضح بأنه لو كان في مكانهم لفعل الشيء نفسه.

إن هدف قابيل الدائم هو الاستحواذ على المزيد من الجاه والسلطة، غير آبه بأي رادع أخلاقي. وهو بالإضافة إلى ذلك، يجد متعة في اتباع السبل الملتوية واستخدام الدسائس، وخاصة عندما تنجح هذه الدسائس في تحقيق أهدافه، وإن ترتب على ذلك إيذاء الأبرياء الذين تشاء الصدف أن يعترضوا سبيله.

يبدو أحياناً وكأن قابيل يفضل الوصول إلى غايته عن طريق الغش، حتى وإن كان من الممكن تحقيق هذه الغاية بطرائق أمينة ومستقيمة.

نموذج حي 5

يشغل سبنسر منصب معاون لأحد المسؤولين الذين عينهم الرئيس[5] بنفسه، وكان المذكور يعمل قبل ذلك مستشاراً تجارياً. ويبدو أن الظروف كانت مؤاتية لـ سبنسر كي يرتقي بسرعة إلى أرفع المراكز. كانت أمنيته أن يعمل لحسابه الخاص بصفة عضو في «لوبي» لخدمة مصالح شركات أو مؤسسات كبرى. لذا كان يخطط للبقاء في عمله الحالي لمدة سنة أو سنتين فقط. كان سبنسر يتوقع أن يتجاوز دخله كعضو في اللوبي، ثلاثمائة ألف دولار سنوياً.

كان الراتب الحكومي الذي يتقاضاه سبنسر غير كاف لسد احتياجات عائلته. وكان الزوجان لا يستسيغان أن تعمل الزوجة خارج المنزل، وذلك لأن أطفالهما مازالوا صغاراً وينبغي على الأم أن تبقى في المنزل للعناية بهم. وكانا لا يحبذان فكرة اللجوء إلى المؤسسات الخدمية التي تعنى بالأطفال في النهار خلال عمل ذويهم خارج المنزل.

ولحل هذه المشكلة فكر سبنسر بخطة ظريفة إن صح التعبير. إذ استغل مركزه في البيت الأبيض لإضافة اسم زوجته إلى جدول الرواتب بحيث أصبح بإمكانها أن تبقى في البيت مع أطفالها وتقبض راتبها من الدولة في آن واحد. وذلك لأن طبيعة وظيفتها لم تكن تتطلب إثبات وجودها.

من المفارقات العجيبة أنه كان لدى سبنسر بديل آخر مشروع للخروج من ضائقته المالية؛ فقد كان باستطاعته الاستفادة من اتصالاته الشخصية ومعرفته لعدد من الأثرياء الذين كان قد أسدى إليهم خدمات في

(5) الإشارة إلى رئيس الولايات المتحدة الأميركية.

السابق بحكم مركزه. إن أياً من هؤلاء كان على استعداد لأن يقرضه ما يحتاج إليه من المال بشروط سخية جداً، كأن تكون الفائدة على القرض منخفضة مثلاً، أو أن يسدد القرض خلال عشرين سنة على دفعات، على أن تبدأ الدفعات بعد انتهاء خدمته في الدولة وحصوله على عمل في القطاع الخاص، أو يعمل لحسابه الخاص. عندئذ سيتسنى له تسديد المبلغ دون عناء.

إذن لماذا أقدم سبنسر على مجازفته هذه؟

هذا هو السؤال الذي يطرحه هابيل على نفسه... ولا يجد له جواباً لأنه يجد صعوبة في فهم نزعة قابيل التي تدفعه إلى ممارسة الغش.

يمكن الإجابة عن ذلك بالقول: أن قابيل يجد متعة خاصة في الاحتيال ويعتبر بلوغ هدفه بالغش ضرباً من «الشطارة»، وكأنه بذلك يتفوق على منافسيه في «سباق الجرذان[6]».

إن قابيل لا يقيم وزناً للناس أو الأخلاق بالمعنى المتعارف ؛ بخلاف هابيل الذي لا ينحو بطبعه هذا المنحى في تعامله مع الآخرين.

قانون قابيل

ثمة قانون في علم الاقتصاد مفاده أن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة، أي تحل محلها كعملة متداولة (قانون غريشام). إن وجود قابيل وأمثاله في المؤسسات والشركات يقودنا إلى اعتماد القانون التالي:

- **السلوك السيء مُعْدٍ ويطغى على السلوك الحسن**

إن سلوك قابيل وتصرفاته تجعل مَن حوله يحذون حذوه تدريجياً، ويبدأ سلوكه بتلويث بيئة العمل. وأخيراً يجد الجميع أنفسهم مجبرين على

(6) يُستخدم هذا التعبير للإشارة إلى التنافس الحاد بين أفراد المجتمع المعاصر ـ للنجاح في العمل وتحقيق المكاسب الفردية.

الاقتداء به مدفوعين بالرغبة في المحافظة على مراكزهم. وتفقد الزمالة مكانها ليحل محلها المكائد والدسائس والتآمر وسوء الظن.

وعلى ذلك فإن أية مؤسسة أو شركة مهددة بالتفكك وهبوط الإنتاجية. هذا هو الخطر الذي يمثله قابيل للمؤسسة ومستقبلها.

والواقع أن قابيل لا يكترث كثيراً لمصير المؤسسة، فهو لا يتورع عن تحقيق مآربه الشخصية ولو كان ذلك على حساب الشركة.

إن من أقوى الأدوات التي يمتلكها قابيل هي قدرته على إجبار الآخرين على الالتزام بقواعد لعبته. وهو يجيد هذه اللعبة، ومن ثم فهو مرشح أكثر من غيره للفوز في النهاية. إن أفعال قابيل يمليها قانون الغاب وكذلك قانون القوارض:

- **في سباق الجرذان لا بد أن يكون الفائز جرذاً**